« لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً » ويطمئن الحق المؤمنين إلى أنهم إن قابلوا الضرر فى حياتهم فليعلموا أن هذه الحياة ليست هى كل شىء ، بل هناك حياة أخرى نرجع فيها إلى الله ، فمن كان فى جانب الله أعطاه الله خلوداً أبدياً فى النعيم ، ومن كان ضد منهج الله أعطاه الله عذاب الجحيم . وقال الحق ذلك لأن المؤمن لا يضمن نفسه فى كثير من المواقف ، فقد يدخل معركة وفى نيته الإخلاص لكنه قد ينحرف ، فيصيبه الضرر على قدر ما انحرف .

وعلى الذين يسيرون فى ضوء منهج الله دائماً أن يحتفظوا بتلك القضية فى بؤرة شعورهم . ولنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة حينما كان فى غزوة أحد ، وأمر الرماة ألا يبرحوا أماكنهم وإن رأوا المؤمنين فى انتصار ورأوا الأعداء فى هزيمة . واتجه الرماة إلى الغنائم من فور أن رأوا انتصار المؤمنين ، فلم ينصرهم الله وهم على مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وبذلك تعلم المؤمنون الدرس : أن يطيعوا الله والرسول فى كل خطوة .

ولو أن الله سبحانه لم يقل : « إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون » . فماذا يكون موقف الذين لم يشهدوا نصراً لجند الله ، وهم قد دخلوا المعارك الأولى واستشهدوا ؟ . لقد علموا من البداية أن المرجع إلى الله وأنه سيعطيهم حياة أخرى ، وسينبئهم الله بما فعلوا . والإنباء هنا بمعنى الجزاء والتكريم .

وكما ساس الحق حياة المؤمن وهو يتحرك فى الحياة الدنيا ، فإنه سبحانه يسوس حياة المؤمن بما يضمن له الحياة الآخرة فى نعيم الخلد والجنة ، لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ

فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ
ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ
ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا
لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾

الحق ـ سبحانه ـ كما ساس ودبر حياة المؤمن الدنيوية ، دبر وتولى ـ جل شأنه ـ حياته الأخروية ليلفته إلى أنه يجب عليه ألا ينظر إلى حياته العاجلة فقط ولكن عليه أن يدبر أمر نفسه فيما يستقبله من أمر الحياة الآخرة ، ففى لحظة مواجهة الموت عليه ألا ينسى الوصية إن كان مديناً لأحد أو كان له دين عند أحد . وكذلك إن سافر الإنسان ضرباً فى الأرض فعليه أن يوصى حتى لا يضيّع على ورثته حقاً لهم ، أو يسدد ما عليه من دين ليبرىء ذمته ، وأن يُشهِد على وصيته اثنين من المسلمين ، أما إذا كان الإنسان يصاحب فى السفر أناساً غير مسلمين فعليه أيضاً أن يُشهدهم على الوصية ، ولم يترك الحق لنا فى هذا الأمر أى عذر ، بل لا بد من شهادة اثنين . والشهادة هى الأمر المشهود فى الحاضر ، ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة البقرة)

أى أن الإنسان إذا حضر الشهر وأدركه فليصم . والشهادة تأتى بمعنى الرؤية مثال ذلك قوله تعالى :

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة النور)

أى أن يحضر مشهد الجلد جماعة من المؤمنين . وتأتى الشهادة أيضاً بمعنى الحكم :

﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ

﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٢٧﴾

(سورة يوسف)

إذن فالشهادة تأتى بمعانٍ متعددة . والأصل فيها المشهد ، أى الشىء الذى تشاهده . والوصية ـ كما تعلم ـ هى إيصاء بأمر يهم الموصى بالنسبة للموصى إليه . والمؤمن يوصى بالخير . ويسمعه من لا يرث ، أى الذى ليس له شرعاً نصيب فى التركة ، لكن قد يكون لغير الوارث سبب من أسباب المنفعة مع المورِّث . وعلى الرغم من ذلك فالسامع للوصية يبرىء ذمته فيبلغ ما سمع إلى الورثة ؛ لأن الوصية هى مسألة فى نفس المُوصى ، وقد لا يكون لها حيثية عند من يسمعها أو يتلقاها ولكنها ذات حيثية فى نفس الذى يقولها ؛ لذلك يجعل الله الوصية قبل الدين فى قوله الحق :

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾

(من الآية ١٢ سورة النساء)

إن ذلك يحدث على الرغم من أن الدَّيْن مقدّم على الوصية ؛ لأن الدين حق والوصية تبرع . ويريد الحق ذلك ؛ لأن الدين له مُطالِب سيطالب به ، ولكن الموصى إليه قد لا يكون صاحب حق ولكنه يتلقى تبرعاً بالوصية ، أو يكون حقه لدى الموصى غير موثق بصك أو شهادة ؛ لذلك يقدمه الحق سبحانه وتعالى ليجعلنا نهتم بأمر الوصية . أو يكون الذى وصى بشىء قد عاش فى الحياة ويعلم مَنْ مِنَ الناس أثر فى حياته علمياً أو أدبياً أو خلقياً أو اجتماعياً ؛ لذلك يريد الله سبحانه وتعالى ألا يبارح الإنسان الحياة إلا بعد أن يؤدى المؤمن هذا الحق الأريحى لمن كان له عليه يَد فى دنياه . وهذه مسألة قد لا تشغل الورثة ، بل قد يكرهونها . لكن صاحب الوصية هو الذى يعلم حيثياتها .

ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يؤكد أمر الوصية حتى فى الوقت الذى يَعز فيه التأكيد ، فأمر الإنسان أن يوصى بها إن كان بين أهله وقومه ، ويؤكد الحق أهمية الوصية أيضاً إن كان الإنسان مسافراً ، فإن أحس باقتراب الموت فله أن ينادى اثنين من أهل دينه ويوصيهما . وإن لم يجد أحدًا من أهل دينه فليُسْمِع وصيته اثنين من غير أهل دينه ، ولذلك مناسبة :

فقد حدث أن رجلا مسلماً اسمه بديل بن أبي مريم مولى العاص بن وائل السهمي ، كان على سفر مع غير مسلمين وحضرت له مقدمات الموت فكتب ورقة ووضعها مع كل ما معه من متاع - احتياطياً - ونادى على اثنين من غير المسلمين وهما تميم الداري وعديّ بن بدّاء ، وأوصاهما أن يسلما متاعه لأهله ، ومات الرجل . لكنّ الاثنين فتحا المتاع ووجدا فيه إناءً مفضضاً ومُذهّبا وله قيمة ، فأخذاه وباعاه بألف درهم واقتسما المبلغ ، وسلما المتاع لأهل الميت الذين عثروا على الورقة المكتوب فيها كل التفاصيل بما فيها خبر الإناء الثمين . وسأل أهل الميت الشخصين اللذين سلما المتاع عن الإناء فأنكرا أى معرفة به ، وأنكرا أيضا أنهما رأيا صاحب الإناء يبيعه . وبعد فترة عثر أهل الميت على الإناء معروضاً للبيع . وعرفوا أن البيع الأول كان من الشخصين اللذين حضرا موت صاحب الإناء . فذهب أهل الميت إلى رسول الله يعرضون عليه مسألة خيانة الأمانة فى أمر الوصية ، فنزل قوله الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ (١٠٦) ﴾

(سورة المائدة)

إنه أمر من الله لرسوله أن يحضر هذان الاثنان من بعد أن يؤديا صلوات دينهما وأن يقسما بالله ، وأن يأتى أهل الميت ومعهم الورقة وليكشف الرسول الحق من الباطل . وقد أسلم تميم الدارى من بعد ذلك وقص القصة وأحضر الخمسمائة درهم التى كانت فى ذمته والتى أخذها ثمنا لنصف الإناء وأحضر الخمسمائة درهم الأخرى التى عند عدى ليردا ثمن الإناء كله إلى أهل الميت .

ولماذا قال الله : « تحبسونهما من بعد الصلاة » ؟ إنه أمر بأن نحتجزهم من بعد الصلاة ؛ لأن الإنسان عادة بعد أن يؤدى الصلاة سواء أكان من أهل الكتاب أم من غيرهم تصفو نفسه بالاستعداد للصدق بعد أن وقف بين يدى الله ، ويكون فى هذه الحالة أقل اجتراءً على الكذب ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا

شهادة بينكم » . أى الشهادة التى يختلف فيها الناس وتختلف فيها الأقوال بين طرفين ، ذلك أن كلمة « بين » تعنى انفصال كائنين فيصير كل منهما طرفاً .

إن هذه الشهادة تحتاج إلى الفصل بين وجهتى النظر . والذى يقوم بهذا الفصل هو من يستجوب الاثنين اللذين من ذوى العدل من المسلمين أو من غير المسلمين ، ويتم الاستجواب من بعد أداء الصلاة . فإن صار الأمر الذى شهدا فيه واضحاً ، كان بها . وإن لم يكن قولهما واضح الصدق وفيه شك وريبة ، فعلى الشاهدين أن يقسما بالله أنهما لا يشتريان بآيات الله ثمنا حتى لا يكونا من الآثمين .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

فإن ظهر أن الشاهدين قد حرفا وصية الميت أو أخفيا بالكذب بعضاً من تفاصيلها ، فلنا أن نستدعى اثنين من أقرب الناس للميت فيقسمان بالله أن الشاهدين السابقين قد كذبا فى الشهادة ، وأن هذا الاتهام بالكذب ليس افتراء ولكنه قائم على الحقيقة ، ولو ظهر أن شهادتهما فيها كذب فهما المستحقان لعقاب من يظلم غيره .

وبذلك يفسح الحق لنا المجال أمام إقامة العدل بأن نستقصى الصدق ، فإن ظهر لنا بدليل ما كذب الشاهدين اللذين حضرا موت صاحب الوصية ، فلنأت بشاهدين

من أولياء الميت بدلا منهما . وكلمة « عثر » تعنى الوقوع على شىء على غير قصد . فإن عرفنا أن الإثم ظاهر من شهادة هذين الشاهدين ، فلنا أن نستقصى الصدق فى شهادة اثنين غيرهما من أهل الميت .

وفى الواقعة التى نزلت فيها الآية ، قام عمرو بن العاص والمطلب بن أبى وداعة السهمى فأقسما بالله أن الشاهدين السابقين قد كذبا وأن الشهادة التى يقدمانها هى شهادة الحق لا اعتداء ولا جور فيها على أصحاب الشهادة الأولى . ولماذا كل ذلك ؟ لأن الهدف هو أن تأتى الشهادة على الوجه الصحيح لها ، فيقول الحق :

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ (١٠٨) ﴾

إن الشهود الأول الذين قدموا الشهادة لأنهم حضروا لحظة الوصية عندما قالها الميت يقدمون شهادتهم بعد أن يؤدوا الصلاة وبعد أن يقسموا أن ما يقولونه هو الحق . ولا بد لهم أن يحرصوا على صدق القول بدلاً من أن يفتضح أمر كذبهم . والشهادة كما نعرف تطلق على أى أمر نحضره . والشهادة - كما نعلم - تطلق على متلازمات متعددة يجمعها كلها كلمة « الحضور » كقوله الحق :

﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾

(الآية ٢٧ وجزء من الآية ٢٨ سورة الحج)

أى أن نداء الحج يسمعه الناس فيأتون من كل مكان وعلى كل وسائل النقل وقد تكون صعبة حتى يشهدوا منافع لهم . وسبحانه وتعالى يقول :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

وشهادة الله هى حكم من الله . والملائكة أيضاً تشهد ، وشهادتهم هى شهادة الإقرار . وكل ذلك ناشيء من أمر حاضر يستقرئه الشاهد . ونحن نرى الشاهد يقف أمام المحكمة ، فتسأله النيابة فيقول ما رأى ، ويسأله محامى الخصم فيقول ما رأى ، ويسأله محامى الدفاع فيقول ما رأى . ومادام الشاهد صادقاً فلن يخشى محاورة أى طرف يسأله . والأطراف التى تسأل الشاهد تطلب منه أن يأتى بالواقعة على أساليب مختلفة . ومادامت الواقعة صادقة تظل كما هى مهما تنوعت الأسئلة وتغيرت الأساليب ؛ لأن الشاهد الصادق يستوحى واقعاً لا يتغير ، أما الشاهد الكاذب فهو يلف ويدور ويغير من أقواله . ولهذا نرى وكيل النيابة اللبق الحاذق يبحث فى ذاكرة الشاهد عن أدق الخفايا .

وهكذا نعرف أن الشهادة تطلق على الحضور . أما إذا كان الشاهد هو الذى يملك الحكم فشهادته حكم . ومثال ذلك قول الحق سبحانه : « شهد الله » . إن الله يشهد أى يحكم .

وفى قصة سيدنا يوسف عليه السلام نرى كيف أوقع الحق بإخوة يوسف عندما أخذوا أخا يوسف الصغير معهم فى الرحلة إلى مصر . وكيف دبر يوسف لهم أمراً ليحتجز أخاه معه . وكيف كان الصراع بين إخوة يوسف خوفاً على أبيهم بعد حجز الأخ الصغير . فيقول لهم شقيقهم الأكبر كما أخبر القرآن الكريم :

﴿ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يوسف)

ونعرف أن إخوة يوسف كذبوا فى المرة الأولى عندما فعلوا فعلتهم الشنعاء ضد يوسف لكنهم صدقوا فى المرة الثانية التى احتجز فيها شقيق يوسف . ولذلك طلبوا أن يسأل والدهم إما أهل القرية التى كانوا بها وإما رفاقهم فى القافلة .

لقد أخبروا أن أخاهم قد استخرج من وعائه بعض من أدوات الملك وهو الصواع الذى كان يكال به ولهذا جاءت شهادتهم هذه المرة مطابقة للواقع ، وهو ما أخبروا به .

إذن فالشهادة هى الفيصل فى التنازع . ولذلك يوصى النبى صلى الله عليه وسلم ألا يشهد الرجل على أمر إلا بعد أن يكون قد رآه رأى العين ، كما يرى الشمس : « على مثلها فاشهد أو فدعْ »[1] .

الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نعلم أن الشهادة كلها تدور حول الحضور والشهود . ولهذا تأتى الشهادة فى لوازم متعددة ، فهى مرة تعنى الحضور ، وهى مرة تأتى بمعنى الحكم ، وثالثة بمعنى الإقرار . وكلها معانٍ ملتقية .

والشهادة تتطلب أمرين : الأول هو حضور الشاهد لحظة وقوع المشهود به ، والثانى هو أمانة النقل ، ولذلك جعل الله فى بعض الأحكام شهادة اثنتين من النساء تعدل شهادة رجل واحد . وقد يقول قائل : كيف يساوى الإسلام بين شهادة رجل جاهل أو أمى وشهادة امرأتين قد تكون كل منهما على درجة عالية من الثقافة والعلم ؟

ونقول : إن المسألة فى الشهادة ليست عمل عقل ، ولكنها أمانة نقل ، وأمانة النقل لا شأن لها بالثقافة ، فالشهادة تحتاج إلى حضور الحادثة ، ثم إن المرأة يكون دائماً أمرها مبنياً على الستر وعدم التهجم على الرجال . فقد تقع حادثة وتوجد امرأة بجانب هذه الحادثة ، وبطبيعة الحال لن تتجاسر وتتقدم وتسأل لمعرفة كل التفاصيل ، على العكس من الرجل الذى يرى الحادثة ، فيحاول أن يعرف كل

(١) رواه الديلمى والطبراني عن ابن عمر ، قال النجم : أورده الرافعى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الشهادة ؟ فقال للسائل : ترى الشمس ؟ قال : نعم . قال : على مثلها فاشهد أو فدعْ . وقال الحاكم والبيهقى عن ابن عباس ـ مرفوعاً ـ : « إذا علمت مثل الشمس فاشهد وإلا فدعْ » .

ما جرى . وحين أراد الحق الشهادة من امرأتين ، لم يطلب ذلك لضعف الثقة فى المرأة أو زيادة الثقة فى الرجل ، ولكن لأن الشهادة ليست ابتكار عقل ولكنها حضور مشهد وأمانة نقل .

إن البعض يحاول أن يروج لمثل هذه القضايا وكأنها وسيلة للتهجم على بعض من الداعين لله ، ولذلك أقول لهم : يجب أن يفهم الإنسان منكم الفارق بين عداوته مع بعض الداعين إلى الله وأن يتعدى حدوده إلى أن يحاد الله ؛ لأن الإنسان منهم لا يرد الحكم على الداعية ، وإنما يرد الحكم على الله .

وأمر الحق سبحانه فى شهادة اثنين من الرجال أن يؤديا الصلاة ، ثم يتم حبسهما لفترة ، وبعد ذلك يتم استدعاؤهما للشهادة ، فإن رد أهل الميت شهادتهما فى أمر الوصية فيتم استدعاء اثنين من أولياء الميت لأداء الشهادة فى شأن الوصية ، كل ذلك لماذا ؟ من أجل أن تأتى الشهادة على وجهها الصحيح الذى يُظهر كلَّ الحقيقة .

ويذيل الحق القول الكريم : « واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدى القوم الفاسقين » وذلك بلاغ للمؤمنين كافة وإلى الناس عامة ؛ لأن الله لا يهدى إلا من تطامن إلى منهج الله ، أما من يفسق فلن يعينه الله ، ذلك أن الله لا يعين كافراً ولا ظالماً ولا فاسقاً . أما من آمن بالله ، فالحق سبحانه وتعالى يعينه على هذا المنهج ويهديه إلى الصراط المستقيم .

ولماذا أنزل الله هذه الآيات بعد أن أجرى الأحداث التى تتطلبها ؟نعرف أن الحكم إن نزل فى ظرف يتطلبه ، تكون النفس إليه أشوق وبه أعلق ، مثال ذلك : كوب الماء الذى يتناوله العطشان ، إنه يتناوله بشوق ولهفة . عكس الإنسان الذى يتناول كوب الماء وهو غير عطشان ، فقد يضعه فى مكان قريب منه دون أن يشربه ، وكذلك الدواء الذى يُؤتى به للمريض لحظة معاناته القصوى من المرض ، إنه يقبل عليه بلهفة مهما كان مر الطعم ، وهكذا جاءت بعض أحكام القرآن مناسبة لأحداث وقعت لتكون اللهفة على التطبيق موجودة فى النفوس المؤمنة .

ويقول الحق تعالى من بعد ذلك :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾

وينبهنا الحق سبحانه هنا إلى ضرورة أن نستعد لليوم الذى يجمع الله فيه الرسل يوم الحساب ، أى أننا علينا أن نراعى الالتزام فى تكاليف المكلف الأعلى فى كل عمل من أعمال الحياة ؛ لأنه سبحانه سوف يسأل الرسل فى ذلك اليوم : « ماذا أجبتم » ؟ أى كيف استجاب الناس إلى المنهج الذى دعوتم إليه ؟ وفى هذا تقريع لمن خالف الرسل . ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة النساء)

ونعلم ـ كذلك ـ أن يوم المشهد الأعظم سيأتى رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ شهيداً على أمته وعلى كل الرسل السابقين عليه ، ومثال ذلك فى حياتنا ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد الأهل ينتظرون الابن على باب لجنة الامتحان ويسألونه : كيف أجبت ؟ .

إن الأهل يطلبون من الابن أن يعطيهم تقدير الموقف إجمالياً . أما إن سألوه بماذا أجبت ؟ فمعنى هذا أنهم يطلبون منه أن يحكى لهم ماذا أجاب تفصيلياً عن كل سؤال . وسؤال الحق لرسله : « ماذا أجبتم » فى الظاهر هذا سؤال للرسل ، وفى الحق إنه للمخالفين ، وكأن هذا تقريع لمن لم يؤمنوا برسالات الرسل ، ذلك أن مهمة الرسل هى البلاغ عن الله .

وبماذا يجيب الرسل يومئذ عن الله ؟ هم يجيبون الإجابة الدقيقة المتضمنة لكل أدب الإيمان : « لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب » ونجد من يتساءل : كيف ـ إذن ـ يقولون : « لا علم لنا » على الرغم من أن هناك من استجاب لدعوتهم ومن لم يستجب لها ؟ ونقول : لأن الآخرة فيها حساب على نوايا القلوب والسرائر ، لقد علم الرسل بالأمور العلنية من أقوال وسلوك ، ولكن الحق يحاسب على حسب النية

والسلوك ، وهو سبحانه الأعلم بالسرائر وما تخفى الضمائر ، وأيضا فالأنبياء قد علموا الذين آمنوا بالمنهج وكانوا معاصرين لهم ، ولكن ليس لهم علم بمن كفر أو آمن بعد أزمنتهم ، وإجابة الرسل هي قمة الأدب مع الله ، ذلك لأن كلا منهم قد علم أن معرفة الله شاملة وعلمه قد وسع كل شيء ، ولذلك جاء قولهم : « إنك أنت علام الغيوب » .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي
عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ
تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ
تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا
فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ
بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ
بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

لماذا إذن يجمع الله كل الرسل ويسألهم سؤالاً على الإجمال ، ثم لماذا يأتي بعيسى ابن مريم ليسأله سؤالاً خاصاً عن حادثة مخصوصة ؟

أراد الحق بذلك أن يعلمنا أنه سيسأل الرسل سؤالاً يوضح لنا أدب الرسل مع الحق ، ويبين لنا تقريع الحق لمن كفروا بالمنهج ، أما سؤاله سبحانه وتعالى لعيسى ابن مريم ، ذلك السؤال الخاص عن الحادثة المخصوصة ، فمرد ذلك إلى أن بعض الذين آمنوا به قد وضعوه فى موضع الألوهية أو بنوّة الألوهية ، وفى ذلك تعدٍ على التنزيه المطلق للحق سبحانه وتعالى . ونعلم أن قصارى ما صنعت الأمم السابقة أن بعضهم كفر بالرسل ، وبعضهم كذب الرسل ، لكن لم يدع أحد من هذه الأمم أن الرسول الذى جاء هو إله ، لم يقل ذلك أحد وإن كان بعض فرق اليهود قد قالوا : إن عزيرا هو ابن الله وهذه الفرقة قد انقرضت ولم يبق يهودى يقول ذلك ، وسبحانه قد جعل الشرك به قمة الكفر الذى لا غفران له .

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

فكأن عيسى عليه السلام سيواجه السؤال ضمن الرسل ، ثم يسأله الحق سؤالاً خاصاً به . ويقدم الحق السؤال لعيسى ابن مريم بعد أن ذكّره بعدد من النعم التى أنعم بها سبحانه وتعالى عليه وعلى أمه مريم عليه وعليها السلام :

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ونجد هنا أن الحق سبحانه وتعالى يعدد بعضاً من نعمه على سيدنا عيسى وهى : التأييد بروح القدس وهو سيدنا جبريل عليه السلام ، والكلام فى المهد بما يبرىء أم عيسى السيدة مريم عليها السلام مما ألصقوه بها من اتهامات ، وتعليم الحق له

الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . وأنه سبحانه قد أقدره على أن يصنع من الطين كصورة الطير بإذن منه سبحانه وأن ينفخ فيه فيصير طيراً بإذنه سبحانه ، وكذلك أقدره الحق سبحانه أن يبرىء الأعمى من العمى . وأن يعيد إلى الأبرص لون جلده الطبيعي ويشفيه ، وأجرى على يديه تجربة إعادة الموتى إلى الحياة بإذن منه سبحانه ، وكذلك منع الحق عن عيسى ابن مريم كيد اليهود وكف أيدى الذين أرادوا صلبه وقتله على الرغم من أنه جاء لهم بالمعجزات السابقة حتى يؤمنوا فآمن بعض منهم وكفر الذى قال : عن تلك المعجزات : إنها مجرد سحر .

وعندما نتأمل بالخواطر أمراً واحداً من تلك الأمور نجد أن قدرة الحق سبحانه وتعالى لها تمام الوضوح الظاهر ، فمجرد كلام عيسى فى المهد هو معجزة ، والمهد - كما نعلم - هو الفراش المريح للطفل يعده له الأهل ساعة أن يولد ؛ لأن الطفل لا قدرة له على أن يتزحزح من مكانه إن كان هناك شىء بارز فى مهده يضايقه ؛ لأن الطفل يملك الحس ولكن لا قدرة له على مدافعة ما يتطلبه الحس .

إن الطفل المولود لا يستطيع مثلا أن يمد يده ليزيل الحصوة الناتئة من الأرض تحت المهد لذا يمهدون فراشه ويوطئونه له . إنه مجرد روح فى جسد صغير لا حول ولا قوة له إلا استبقاء الحياة بالتعلق بثدى الأم ، فإن تكلم طفل فى المهد ، فمعنى ذلك أنه امتلك إرادة يسيطر بها على كل جسمه إلى الدرجة التى يمكنه أن ينطق بها الكلام ، وهذا لا يحدث أبداً . ونجد الأهل يمهدون الفراش للطفل ، لأنهم يعلمون أن أقصى تعبير عن الانفعال هو أن يبكى . وإذا ما تمكنت حشرة صغيرة من لدغ الطفل كالبرغوث أو البعوضة فالطفل لا يملك إلا البكاء .

وقد تكلم عيسى فى المهد بعد أن أقدره الحق على ذلك . ثم جاء الحق بحقيقة هى المقابل للمهد وهى الكلام فى الكهولة . فإن كان قد تكلم فى المهد إعجازاً ليبرىء أمه البتول فإنه سوف يتكلم كهلاً مبلغاً عن الله . ولم يتكلم عيسى ابن مريم وهو فى المهد إلا بما قاله الحق فى القرآن الكريم :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝ ﴾

(سورة مريم)

قال عيسى عليه السلام فى المهد هذه الكلمات ليبرىء أمه الصدِّيقة ، ذلك أنهم اتهموها فى أعز شىء لديها ، ولذلك لم يكن ليجدى أى كلام منها . وإنقاذاً لها أبلغها الحق عن طريق جبريل أو عيسى عليهما السلام أن تقول :

﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة مريم)

وسبحانه وتعالى يعلم أن ميلاد عيسى من أم لم يمسسها رجل هو خرق لناموس الكون فى الحمل ، وكذلك أراد الحق أن يكون هناك خرق للناموس فى الكلام فيتكلم عيسى فى المهد بكلام معجز له معنى . وعلمه الحق الكتاب : « وإذ علمتك الكتاب » أى علمه الله الكتابة ، وعلمه التوراة ، وأنزل عليه الإنجيل ، وألهمه الحكمة وهى الكلام المحكم الصواب بإلهامات الله ومقابلها فى الإسلام أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

وجاءت دقة الأداء القرآنى لتمنع أى تصور لتدخل من ذات عيسى فيما أجراه الله على يديه وذلك منعاً للفتنة فقال الحق : « وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير » إذن فعيسى لا يخلق الطير ولكن يصنع من الطين مثل هيئة الطير ، فالحق وحده هو الذى يخلق الطير ؛ فلأنه الإله فهو الذى يخلق خلقاً عاماً ، أما البشر فبإمكانهم أن يخلقوا أشياء ويشكلوها كمثل المخلوقات ، لكنها ليست مخلوقات .

إننا نرى ذلك فى التماثيل التى ينحتها المثّال من الصخر أو يشكلها من الطين كهيئة الجمل أو العصفور ، لكنه لا يملك أن ينفخ فيه الروح ، وقد يخترع الإنسان أشياء مثل الكوب من الرمل المصهور المنقى ، لكننا لم نسمع عن خلق كوب ذكر وكوب أنثى ليتوالد من الإثنين نسل من الأكواب !

إننا نرى دائماً أن خلق الإنسان لشىء إنما يظل معقوداً على حاله فلا ينسل ولا ينمو ولا يحس ، والخالق الأعظم يخلق من عدم ، أما أنت أيها الإنسان فتصنع أشياء مما

وهبك الله من أشياء موجودة مطمورة فى الأرض أو ظاهرة . ولم يضن سبحانه عليك بل أطلق عليك بأنك خلقت ، ولكن لتنتبه إلى أنه سبحانه وتعالى أحسن الخالقين .

إذن فعيسى صَنَع من الطين مثل هيئة الطير ، وكان ذلك بإذن من الله ، ونفخ فيه فكان طيرا بإذن الله.والفارق بين قدرة الحادث وهو العبد ، وقدرة الباقى القدير وهو الرب أمران . الأول : أن الحق سبحانه وتعالى حينما يقدر أمرا فهو يستطيعه بطلاقة قدرته أن يُقدر بعضًا من خلقه على أن يفعل الشيء ، لكن العبد لا يستطيع أن يقدر عبداً آخر أن يصنع شيئاً مثل الذى يصنعه .

والمثال على ذلك : نجد الطفل إن أراد أن يحمل كرسياً فهو لا يقدر ، ويأتى شاب قوى ليحملَ الكرسى للطفل ، هذا الشاب إنما يعدى أثر قوته إلى الطفل ولم يُعَدَّ لَهُ قوته ولم ينقلها له ، ويبقى الطفل ضعيفا كما هو . أما الحق سبحانه وتعالى فهو يُقْدِرُ من يريد على ما يريد . فبعظمته سبحانه يعدى من قدرته إلى من لا يقدر ليَقْدِر . والعظمة إذن فيما فعل المسيح هى أن الحق سبحانه أراد له أن يحيى فنفخ فى الطين فصار طيراً بإذن الله . وقد سبق سيدنا إبراهيم سيدنا عيسى فى ذلك عندما سأل الله :

﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ﴾

(من الآية ٢٦٠ سورة البقرة)

فسأله الله :

﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾

(من الآية ٢٦٠ سورة البقرة)

فقال إبراهيم : « بلى » أى أنه آمن ، وأضاف :

﴿ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾

(من الآية ٢٦٠ سورة البقرة)

والكلام هنا جهته منفكة ، فإبراهيم قد آمن ، والإيمان اطمئنان القلب إلى عقيدة ما ، وما جرى زاد إبراهيم تيقناً . ولم يسأل إبراهيم ربه : أتحيى الموتى ولكن إبراهيم أقر أولاً بقدرة الحق على الإحياء وتساءل عن الكيفية . وطلب الكيفية لا شأن له

بالإيمان ؛ لأن الكيفية تتطلب تجربة . فأمره الحق أن يأتي بأربعة من الطير وضمها إليه ليتعرف عليها جيداً . وأن يقطعها إبراهيم بيديه ويضع كل قطعة على جبل وبناديها ، فتأتي القطع بنداء إبراهيم وقد صارت هي الطير نَفْسَهَا التي كانت من قبل .

وهكذا أراد الله لعيسى عليه السلام أن يصنع من الطين مثل هيئة الطير بإذن الله وأن ينفخ فيها بإذن الله فيصير الطين طيراً . وأراد الله لعيسى أن يبرىء الأكمه أي الذي ولد أعمى . وقد يقول قائل : إن في عصرنا يتم ترقيع القرنية ويمكن أن يَرى ويبصر بعض من الذين ولدوا بلا قدرة على الإبصار . ونقول : إن ما يحدث في عصرنا هو سبق وتقدم علم بناء على تجارب ، أما ما حدث مع عيسى فكان خرقاً للناموس وأراده الله معجزة . وكذلك أراد الله أن يجري على عيسى شفاء الأبرص أي الذي أصابه بياض كالرقع في بشرته . وكذلك كف بني إسرائيل عنه عندما أرادوا إيذاءه وقتله . وعندما رأوا كل ذلك آمن بعضهم ، وكفر البعض واتهموا عيسى عليه السلام بأنه ساحر . وكان ذلك منهم كذبا وافتراء عليه ؛ لأنه نبي مرسل بمعجزات واضحة .

وفي هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الحق سبحانه وتعالى يسرد نعمه على سيدنا عيسى عليه السلام . وسرد النعمة على الرسول ليس المقصود منه تنبيه الرسول إلى النعمة ، فالرسول يعلم النعم جيداً لأنها جرت عليه ، ولكنه تقريع لمن رأى هذه الأحداث والنعم ولم يلتزم الإيمان بالله بعدها ، وقد أجرى سبحانه كل هذه النعم على عيسى عليه السلام وأيده الله بما يقوى ويزكي رسالته إلى قومه . فكانت نعمة أولاً عليه ، لأنه مصطفى ، مختار ، مؤيد . ونلحظ أن هذه الآيات والنعم تنقسم إلى قسمين : قسم يقنع أصحاب العقول والألباب والفكر والمواجيد النفسية . وقسم يقنع القوم الماديين الذين لا يؤمنون بملكوت الله في غيب الله . والقسم الأول الذي يقنع أصحاب العقول والألباب هو تعليم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل .

والقسم الثاني الذي يقنع الماديين هو الأمور المادية الحسية التي يتعرف من يراها على أنها لا يمكن أن تجري على يد بشر ، كأن يخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه

فيكون طيراً ، وإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص . وهذه الآيات خرق للناموس المادى ، ولذلك يتبع الحق كل واحدة منها بذكر كلمة : « بإذنى » أى أن هذه المعجزات لم تكن لتحدث لو لم يأذن بها الله . ولم يذكر الحق ذلك بالنسبة للآيات الأخرى لأنها أمر ظاهر ومعروف ، حتى يكون الأمر واضحاً أمام كل إنسان ممن يحبون عيسى ويرتفعون به إلى مقام أعلى من مقام النبوة المؤيدة ممن أرسله . وحتى لا يخدع قوم عيسى فى هذه الآيات ويظنوها مزية مطلقة له ، ولكنها مجرد آيات معجزات لإثبات صدق الرسالة عن الله .

إن عيسى عليه السلام حينما أخذ كل قطعة من الطين ليصور منها طيراً وينفخ فيها فتكون طيراً لم يفعل ذلك بقدرته وإرادته ، وإنما حدث ذلك بإذن من الله ، ولم يحترف عيسى تلك المسألة ، وكذلك كان إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، وكل ذلك خرق لناموس المادة ، لذلك كرر الحق القول بأن هذا الخرق كان بإذن منه سبحانه حتى نعرف أن عيسى لم يأخذ من قدرة الله طلاقة له بل انحصر الأمر فى هذه المسائل التى أذن الله فيها فقط .

إننا نجد أن كل خرق لناموس الغيب عند الأنبياء أو الأولياء ، أو من يعطيهم الله هذه الإشراقية ، هذا الخرق إنما هو لتكريم النبى أو الولى أو الذى تشرق عليه فيوضات الله ، وعلينا أن نعرف أن الله لم يعط إنساناً واحداً القدرة على العلم بالغيب مطلقاً ، إنما يطلع الحق بعضاً من خلقه بهبة من تجلياته على شىء جزئى . فالحق سبحانه وتعالى هو مالك الغيب :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأنعام)

ولم نر إنساناً علاماً للغيب ولكن يُعْلِمُهُ الله بغيب من بعض غيبه ، حتى نعلم أنها أحداث وقتية يتجلى الله فيها بفضله ، ليثبت حالة من الحالات ، ثم يظل الإنسان مع الناموس العام فى كون الله . والناموس الكونى هو الأمور والقوانين التى أطلقها الله فى الكون لتعمل لخدمة المؤمن والكافر والطائع والعاصى . ومثال ذلك شروق الشمس وغروبها ، وحركة السحاب حاملاً المطر ، ووجود الأرض بعناصرها القابلة للزراعة . وخرق الناموس يكون بإذن من الله للرسل والأنبياء والأولياء ؛ إننا نجد

كل ذلك آيات من الحق لإثبات صدق الرسول فى البلاغ عنه ، وهذا الإثبات مشروط بشروط : أولها أن يكون النبوغ قد بلغ درجة قصوى فى هذا المجال الذى تحدث فيه تلك المعجزة ، والمثال على ذلك : خرق الحق سبحانه لناموس العصا وهى فرع من شجرة وجعل موسى عليه السلام يلقيها فإذا هى حية تسعى . وما أجراه الله على عصا موسى لم يكن سحراً ولكنه نقلها من جنس إلى جنس فى عصر نبغ فيه الناس فى السحر ، ونعلم أن موسى أنس إلى ربه فقال وأطنب وأسهب وأطال :

﴿ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

وعرف موسى من بعد مقام الأنس والانجذاب مقامَ الخشية فأوجز قائلاً :

﴿ وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

لقد عرف موسى عليه السلام أنه يخاطب مولاه فأطال الأنس ، به وعرف أيضاً مراعاة المقامات وانتقل من الانجذاب والأنس إلى مقام الرهبة فقال : (ولى فيها مآرب أخرى) .

وجاء الأمر بإلقاء العصا :

﴿ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴾

(من الآية ١٩ سورة طه)

وهنا خرجت العصا عن ناموسها الذى يعلمه موسى عليه السلام فلم تعد للتوكؤ والهش على الغنم ، ولكنها تنتقل من جنس الخشب إلى جنس الحيوان فتصير حيّة :

﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة طه)

ولذلك كان لا بد أن تُدهش المسألةُ موسى عليه السلام ، لذلك أوجس خيفة . ولكن موسى عندما عرف سرّ عصاه لم يوجس خيفة بل تحدى السحرة الذين جاء بهم فرعون فى يوم الزينة ، وعرف موسى أنه ليس بساحر مثلهم ولكن الله أتاه معجزة

بستبهر حتى السحرة ، فالسحرة يعلمون أن عملهم تخييل وليس تغييراً للأشياء ، أما الحق فهو يغير الأشياء نفسها . لقد جاء السحرة بناء على أمر فرعون إلى يوم الزينة ، ويعلمنا القرآن بلمحات جانبية أن نظام السخرة كان موجوداً ، ولذلك طالب السحرة بأجرهم إن هم غلبوا موسى :

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة الأعراف)

وعلى الرغم من اختلاف مواهب هؤلاء السحرة ورقى كل منهم فى فرع من فروع السحر ، إلا أنهم جميعاً سجدوا للحقيقة عندما ألقى موسى عصاه وقالوا :

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

وهكذا عرفوا أن ما فعله موسى ليس قدرة بشرية ولكنه قدرة فوق قدرة البشر . إنها المعجزة التى يجريها الله على يد الرسل لإثبات صدقهم فى إدعائهم أنهم رسل من الله . وكذلك نبغ قوم عيسى عليه السلام فى الطب . ولم يجرؤ أحدهم على أن يشفى بكلمة واحدة الأكمه والأبرص أو أن يخرج الميت من موته إلى الحياة . وعلى الرغم من تقدمهم فى الطب لم يستطع أحدهم أن يفعل ذلك . والحق سبحانه يسهل المعجزات على رسله ، والمثال فى الإسلام هو الإسراء برسولنا ونبينا صلى الله عليه وسلم ، وحَدَثَ الإسراء فى لمح البصر ، ونحن فى زماننا نرى التقدم الآلى والفنى قد اخترع الصواريخ التى يمكن أن تختصر الوقت لمثل الرحلة من مكة إلى القدس ولكنها تمت بوساطة آلة تعمل وبأجهزة أعدت بنظام دقيق بعد تجارب مضنية ، ولكن الحق عندما أراد لم يكن الأمر سوى كلمة منه تصير معجزة فى التو واللحظة . ولنحفظ ذلك جيداً : إن المعجزة خرق اقتدار لا سبق ابتكار أى أنها خرق لنواميس الكون حادث من اقتدار المقتدر - سبحانه - ولم يحدث ذلك من ابتكار واختراع واكتشاف مكتشف .

ويُسلّى سبحانه عيسى عليه السلام بذكر هذه البينات ، لكنَّ الكافرين من قوم عيسى عليه السلام قالوا إنها سحر : « فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين » . ونعلم أن الحق خلق الخلق وجعل الإيمان أمراً فطرياً فيهم ، ثم تأتى الغفلة فتبهت جزئية من جزئيات الإيمان ، وتتلوها غفلة أخرى فتبهت جزئية أخرى ، وتأتى غفلة ثالثة فتصير إلى الران وهو ما يغطى القلب فلا تنفذ إليه الهداية ، وذلك بسبب

ما كسبوا وفعلوا من الذنوب : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

ولنستمع إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى رواه حذيفة :

« حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر . حدثنا أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال : ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوَكْت (أى الأثر اليسير من الشىء) ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المَجْل (أى أثر العمل فى الكف) كَجَمْرٍ دحرجته على رجلك فنَفِط فتراه مُنْتَبِراً (أى متورّماً) وليس فيه شىء ، ثم أخذ حصاة فدحرجها على رجله ، فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال إن فى بنى فلان رجلاً أميناً حتى يقال للرجل ما أجلده ، ما أظرفه ، ما أعقله ، وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، ولقد أتى علىّ زمان وما أبالى أيّكم بايعت ، لئن كان مسلماً ليردنّه علىّ دينه ، ولئن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنّه على ساعيه ، وأمّا اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً »[1] .

وها هوذا الحديث الثانى الذى حدثنا به حذيفة عن رفع الأمانة والفتنة . قال حذيفة :

« كنا عند عمر فقال : أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن ؟ فقال قوم : نحن سمعناه . فقال : لعلكم تعنون فتنة الرجل فى أهله وجاره . قالوا : أجل . قال : تلك تكفّرها الصلاة والصيام والصدقة ، ولكن أيكم سمع النبى صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن التى تموج موج البحر ؟ قال حذيفة : فأسكت القوم ، فقلت : أنا . قال : أنت لله أبوك . قال حذيفة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأى قلب أشربها نُكِت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل

(١) رواه البخارى فى الرقاق والفتن ، ومسلم فى الإيمان ، والترمذى فى الفتن وابن ماجه فى الفتن ، وأحمد .

الصفا فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرْباداً كالكوز مُجخّياً - أي مقلوباً - لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه » .

قال حذيفة : وحدثت أن بينك وبينها باباً مغلقاً يوشك أن يكسر .

قال عمر : « أكسْراً لا أبا لك ، فلو أنه فُتح لعله كان يُعاد »(١) .

هكذا كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رفع الأمانة وضياع المناعة الإيمانية من النفس البشرية . وأراد سبحانه للمناعة الإيمانية أن تبقى فى عباده ، لذلك تدخل بالرسل حتى تتكون المناعة ويكبح المجتمع جماح كل فرد . تحدثه نفسه بفتنة .

وعندما كان يتم الفساد فى الأرض . نجد الحق يرسل الرسول ليعيد البريق إلى النفس اللوامة ، ويحيى فى المجتمع القدرة على أن يتناسق السلوك فيه على ضوء منهج الله . ولذلك نجد أن المقاومة التى تحدث للرسل إنما تحدث من الذين يستمتعون بالفساد وبآثار الفساد . وحين يأتى منهج الهداية فهو يأخذ بأيدى المظلومين ويغضب منه الظالمون الأقوياء الجبابرة ، ولذلك يهاجمون الرسل والمنهج القادم من الله ؛ لأن هذا المنهج سيقطع عليهم سبل الفساد الذى يدر عليهم عائداً هو فى نظرهم كبير .

لقد رأينا صناديد قريش وقد تصدوا للدعوة ، فمحمد صلى الله عليه وسلم جاء بالمساواة بين كل البشر . لقد كانوا يعرفون أن مجرد النطق بـ« لا إله إلا الله محمد رسول الله » يعنى فقدانهم لسلطان إرهاب الناس والقبائل . ولو كانت المسألة مجرد كلمة تقال ، ويبقى الأمر على ما كان عليه لقالوها ، ولكنها كانت كلمة تغير من الأمر سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ، ولا يبقى من جبروت لأحد ، فكل الناس سواسية . لذلك تصدى صناديد قريش لدعوة الإسلام . وهكذا نجد أن كل رسول يأتى يبرز له من يعاديه من أصحاب الفساد والجبابرة فى الأرض ، مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) رواه مسلم .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ (١١٢) ﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

والمثال على ذلك هو إرادة الحق فى أن يجعل صيحة الإيمان فى الجاهلية تأتى أولاً إلى أذن سادة العرب جميعاً وهم قريش الذين لا يجرؤ أحد على التعرض لهم، لكن النصر لا يأتى لمحمد وهو فى مكة حيث كانت مقام السيادة ؛ لأن النصر لو حدث فى أول الدعوة ومحمد صلى الله عليه وسلم يحيا بين قومه فى مكة لقال قائل : لقد حدث النصر من قوم ألفوا السيادة وأرادوا أن يسودوا العالم كله لا الجزيرة العربية وحدها ، وأن قريشاً قد ساندت محمداً لاستبقاء هذه السيادة وبسطها على غيرهم، ولكنه ـ سبحانه ـ جعل مقام النصر ينبع من المدينة المنورة .

إنّ الصرخة أولاً جاءت فى أذن السادة ثم التف حولها المستضعفون فى الأرض الذين لايستطيعون حماية أنفسهم، ثم هاجروا وقوّاهم الله من بعد ذلك على الأقوياء.

إننا نجد كل داع إلى الله يأتى إنما يريد استبقاء خير النبوات حتى لا يأتى الران على القلوب، وإن استبقاء هذا الخير يغضب منه الجبابرة والمنحرفون الذين يريدون السيادة على العالم بفكرهم . والداعية إلى الله الذى لا تجد له عدواً يصيبه بالسوء حظه من ميراث النبوة ضعيف، والداعية الذى له أعداء له من ميراث النبوة الشىء الكثير .

والكافرون بعيسى عليه السلام عندما رأوا قوة الآيات التى جاء بها عيسى عليه السلام . قالوا : « إنّ هذا إلا سحر مبين » وهذا يعنى أن معجزات عيسى عليه السلام قد أحفظتهم وأغضبتهم وأحنقتهم وملأت مشاعرهم بالخيبة . إنه قول من قوم يكرهون منهج الحق، وعلى ذلك يكون كفر الكافر نعمةً يدعم بها الحق الداعى إليه ؛ لأن ذلك يحفزه ويدفعه إلى الدفاع عنْ دين الله، فمقاومة الإيمان تظهر قوة المؤمن بالعقيدة التى يؤمن بها .

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

وكلمة الحَوارِيّ مأخوذة من المحسات . فالحُوَّارَى تطلق على الدقيق النقى الخالص . وأطلقت على كل شيء نقى بصفاء خالص ، و« الحَوارِى » هنا تعنى المخلص والمحب لمنهج الخير . وسبحانه يقول : « وإذ أوحيت » والوحى بمعناه العام هو الإعلام بخفاء ؛ أى أن الحق ألهمهم أن يؤمنوا برسالة عيسى المبلغ عن الله ، أى أعلمهم بخواطر القلب التى أعلم بها أُمَّ موسى أن تلقى ابنها فى اليم ليلقيه اليم إلى الساحل ، وهو غير الوحى للرسول ، فالوحى إلى الرسول هو الوحى الشرعى بواسطة رسول مبلغ عن الله هو سيدنا جبريل عليه السلام ، أما وحى الله إلى ام موسى أو إلى الحواريين فهو استقرارخاطر إيمانى يلتفت بعده الموحَى إليه ليجد الواقع يؤيد ذلك . وعندما لا يصادم إلهامُ القلبِ أمرًا واقعا ولا يجد الإلهام ما يصادمه فى نفس الإنسان ، فهذا لون من الوحى ، أى هو إعلام بخفاء ، كأن يتوقع الرجل مَقْدَم صديق من سفر ، أو لوناً من الطعام يشتهيه فيجده على المائدة .

إذن فالإلهام وارد من الله لخلق الله مادام لا يصادم شيئا فى النفس أو فى الواقع ؛ لأن الإلهام الذى يقابل صداماً ليس من الله . فالشياطين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا .

إن الله أوحى للحواريين أن يؤمنوا به وبرسالة عيسى عليه السلام . وبمجرد مجيء عيسى وسماعهم أنه رسول من الله أعلنوا الإيمان به وصاروا من خلصائه . وساعة نرى : « إذ » فلنفهم أن معناها تذكر وقت الحدث الذى قال فيه الحواريون : نحن آمنا بعيسى نبياً من عند الله وأشهدوه أنهم مسلمون .

ومن بعد ذلك يقول الحق :